



## مجاهد مأمون ديرانية

صمت الشعب السوري خمسين عاماً، فلما نطق أخيراً لم يهمس همساً بالصوت الرَّخْوِ الضعيف، بل زُرَّ زَيْرَاً صاخباً تردد صداه في أنحاء الأرض. كانت الكلمة الأولى التي خرجت من أفواه الأحرار الثائرين كلمةً واحدة قصيرة من أربعة أحرف: "حرية، حرية"، ولكنها كانت في أثرها أثقلَ من الجبال وأقوى من الأعاصير. ثم تبعها على الفور ذلك الهاتف العفوي العبرى الذي حفظه التاريخ: "الشعب السوري لا يُذَلُّ"، **فكانَ تلَكَ الكلمة القصيرة وذلِكَ الهاتف الرنان إعلانَ السوريين عن عودتهم إلى الحياة، كان إعلانَ الولادة الجديدة بعد الموت الطويل.**

لن يعرف شعبٌ في الدنيا ما معنى هذا الهاتف وما أثره في قلوب السوريين، لأن أي شعب في الدنيا لم يفقد حريته ولم يفقد كرامته كما فقدها الشعب السوري. حتى الشعب الفلسطيني الذي عاش تحت الاحتلال اليهودي الصهيوني كان أكثر حرية وأوفر كرامة من الشعب السوري الذي عاش تحت الاحتلال البعثي الأسدى الطائفى البغيض.

في أي مكان في الدنيا يمكن أن يُعتَقَلَ المرء وهو بريء، وفي بعض الدول (وربما في كثير منها) يمكن أن يتعرض للظلم والتعذيب، لكنْ يستطيع محاموه أن يدافعوا عنه أمام المحاكم، ولو كانت المحاكم تحاكم إلى قانون جائز. على الأقل يعرف أهلُه أين هو، على الأقل يعرفون أنه حُكِمَ عليه بالسجن عاماً أو ألفَ عام، على الأقل يعرفون أحِيُّ هو أو ميت، على الأقل يستطيعون أن يزوروه في بعض الأحيان، على الأقل يمكنه هو نفسه أن يسأل فِيهِ اعْتِقَلَ وفِيهِ حُكِمَ أو سُجِنَ. أما في سوريا فلم يُعْلَمُ المعتقلُ في أي شيء اعْتِقَلَ، وربما قُتُلَ من بعْدِ ولن يُعْلَمُ في أي شيء قُتُلَ. أما أهله فلن يُعْلَمُوا أبداً أين اختفى،

ولو سأله عنده فليس بعيداً أن يلحوظوا به، لأن السؤال عن المعتقل -في قانون دولة الأسد- جريمة أكبر من جريمة المعتقل التي لا يعرفها أحد.

\* \* \*

مضت على سوريا خمسة عقود مظلمة كئيبة والناس فيها كلهم عبيد، ليسوا أكثر من دجاج في قفص!

كان لواحد من أصدقائي منذ سنوات متجر لبيع الدجاج الحي، فإذا زرته وجدت عنده أقفاصاً فيها دجاج، يفتح أحدها ويمد يده فيقبض على دجاجة ويسحبها خارجاً للذبح، ولم أسمع يوماً أي دجاجة من الدجاجات في القفص تحتاج بكلمة اعتراض. الشعب السوري عاش في قفص كهذا القفص خمسين عاماً. كان "المواطن السوري" تحت حكم الأسد أهون وأقل قيمة من الدجاج في الأقفاص! يستطيع عناصر الأمن أن يقتحموا بيته في أي وقت من ليل أو نهار، ويجروه أو يجرّوه أو يجرونه أو زوجته إلى حيث يريدون. لا يحق له أن يعترض ولا يحق لأحد من أهل بيته أن يسأل، ولن يعرف من بقي في البيت أبداً إلى أين ذهب المعتقلون.

زرت صاحبي ذاك في متجره ذات يوم، فوصلت العربة التي تنقل الدجاج من المزرعة وقد تكدرست فيها الأقفاص وتكونت الدجاجات في الأقفاص أكوااماً، فلما جاء سائق العربة يسلمه "البضاعة" راح يمد يده إلى الأقفاص ويفحص الدجاجات، فكلما وجد واحدة منها ميتة سحبها فألقاها في حاوية القمامنة، ثم عَدَ الباقيات وأخذ توقيعاً بالاستلام. وسألته عن السر، فقال إن حشر الدجاجات في الأقفاص ورحلتها الطويلة من المزارع إلى المتاجر ينذر أن تمرّ بسلام، ولا بد أن تتفق بعض الدجاجات على الطريق بسبب سوء ظروف النقل والتخزين.

أليس كذلك عاملت أجهزة الأمن شعب سوريا كله طوال عقود؟ بل، لقد خضع شعب كامل للمعاملة ذاتها؛ صنعت أجهزة الأمن مع عشرين مليون سوري ما يصنعه بائع الدجاج مع دجاجاته، فإذا صار المرء في قبضتها لم يبقَ فرق بين موته وحياته، ولا يسأل أحداً كيف مات من مات من المعتقلين وكيف عاش من عاش؟

\* \* \*

الله يقول عن نفسه: "لا يُسأَل عَمَّا يَفْعُل"، جَلَ جَلَلُ الله، وأجهزة الأمن في بلادنا أرادت أن تشارك الله في صفاته فصارت لا تُسأل عما تفعل، فالناس ملك لها تتصرف فيما يشاء؛ تنتزع ممَّن تشاء منهم حرية ولا يسألها أحد، وكرامتها فلا يحاسبها أحد، وحياته فلا يعاقبها أحد. الكبار والصغار والرجال والنساء، والعرب والكرد والمسلمون والمسيحيون، كل واحد حمل هوية سورياً فكانما حمل صك عبودية، الكل مماليك وأجهزة الأمن هم المالكون، ويا ليتهم يتصرفون في مماليكهم كما يتصرف راعي البهائم في البهائم، بل هم أذل وأهون، وهم أدنى قيمةً من البهائم والحيوانات.

ثم سأله الناسُ الشعب السوري فيم ثار؟ ثم هم يستكثرون على الشعب السوري أن يضحى بثلاثة ملايين شهيد ليفتدي نفسه من العبودية؟ لو علموا ما يعلم أهل سوريا لرضاوا بأن يضحوا بثلاثة ملايين شهيد ليتخلصوا من حياة العبيد!

المصادر: